الصناعة المنطقية في الخطاب البياني العربي

الباحث عبد المنعم القطاري
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

تقديم:

يعد التفكير الصفة المميزة للإنسان عن سائر الحيوان، حتى قالوا في حد الإنسان: إنه حيوان ناطق، أي إنسان مفكر، فليس التفكير أو العقل من خصائص وميزات اليونان وحدهم. إن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس بالتعبير الديكارتي R.Descartes 1. ومن مميزات فلاسفة اليونان، وخاصة أرسطو، أنه استطاع أن يصوغ قواعد التفكير وضوابطه صياغة نظرية تحولت فيما بعد إلى علم قائم بذاته، أي أن أرسطو قد أخرج هذه القواعد والضوابط من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل. وهكذا أصبح هذا العلم سمة من سمات الحضارة اليونانية، بحيث إذا ذكر اليونان؛ ذكر المعلم الأول أرسطو، وإذا ذكر أرسطو، ذكر المنطق في المقام الأول.

ولما كانت الحضارة اليونانية من أهم الحضارات التي تفاعلت واحتكت معها الحضارة العربية الإسلامية، كان لزاما أن تخضع بعض المنقولات الحضارية اليونانية لمعارك فكرية وسجالات تراوحت بين الرفض والعداء المطلق أحيانا؛ والقبول والدفاع المستميت أحيانا؛ والتوسط والاعتدال في الموقف أحيانا أخرى. ولقد نال المنطق النصيب الأوفر من هذه المجابهات والمعارك الفكرية التي دارت رحاها في ساحة الثقافة والفكر في المجال التداولي العربي الإسلامي.

إن إدراج الحديث عن مسألة دخول المنطق اليوناني إلى العالم العربي الإسلامي، ليس المراد به الوقوف عند هذه المسألة بتفصيل؛ فذلك بحث في إشكالات منطقية أخرى، إنما المراد في هذا الصدد هو فهم طبيعة العلاقة التي نسجت بين المنطق والبلاغة العربية عموما، والبيان العربي على وجه الخصوص في خضم التفاعل بين المنطق اليوناني والبيان العربي. خاصة وأن المنطق مدخل كل العلوم وميزانها، إذ تستند جل العلوم إلى قواعده للاستنباط والتقعيد وفقه، فقد اعتبره الإمام الغزالي في مقدمة كتابه المستصفى "مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا"2.

وعلم البيان العربي واحد من هذه العلوم التي ارتكزت على الصناعة المنطقية، مما يدفعنا لطرح التساؤلات الإشكالية التالية: ما البيان لغة واصطلاحا؟ وما موضوعه وواضعه وما فائدته؟ وما هي ضوابطه المنطقية؟ وهل البيان العربي له منطقه العربي الخاص به أم أن هناك تأثيرا للفكر والمنطق الإغريقيين عليه؟ وإذا سلمنا بهذا أو بذاك فأين يتجلى حضور وحدود القواعد والضوابط المنطقية الإغريقية في الخطاب البياني العربي؟ وأين تظهر أصالة الخصائص المنطقية للبيان العربي؟

1 – علم البيان العربي : تعريفه، وموضوعه، وواضعه، وفائدته

البيان لغة: الكشف، والإيضاح والظهور...بان الشيء، يبين بيانا: اتضح، فهو بين، وأبان الشيء فهو مبين، وأبنته وضحته، واستبان الشيء: ظهر، والتبين: الإيضاح. واصطلاحا: أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد، بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على ذلك المعنى نفسه"3. وعرفه القزويني بأنه: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد مختلفة في وضوح الدلالة عليه"4.

وموضوع البيان هو: "اللفظ العربي من حيث التفاوت في وضوح الدلالة، بعد رعاية مطابقته مقتضى الحال"5.

وإذا ألقينا نظرة على كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وجدنا أنه بالرغم من استعماله لعدد من الألفاظ التي تستعمل في البلاغة بمعناها الاصطلاحي، كالبلاغة، والفصاحة، والبيان والتأليف، والصناعة... فإن كل واحد من هذه الألفاظ يستعمل بمقاصد مختلفة باختلاف أماكن استعمالها.

فالبلاغة عند الجاحظ قد تكون ملكة وقد تكون صفة يصير بها الكلام بليغا، وقد تكون الكلام البليغ نفسه، والبيان يجعله الجاحظ جزءا من عنوان الكتاب " البيان والتبيين"، فيجعله بهذا الوضع مساويا لما يعرف اليوم باسم "البلاغة"، ولكنه في نص الكتاب يجعله لمعان متعددة منها: "إيضاح المعنى" ومنها أنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى"6.

واضع علم البيان: "هو أبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن "مسائل هذا العلم، وتناول البيانَ بمقادير مختلفة نقاد آخرون كالجاحظ، وبشر بن المعتمر، والرماني، والآمدي، والقاضي الجرجاني، وابن رشيق، وأبي هلال العسكري، وما إن جاء عبد القاهر الجرجاني حتى أحكم أساس هذا العلم، وشيد بناءه، ورتب قواعده بشكل دقيق... وتبعه في ذلك من جاء بعده.

وفائدة هذا العلم: الوقوف على أسرار كلام العرب منظومه ومنثوره، ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة والبلاغة التي يصل بها إلى مرتبة عالية"7.

2- جدلية العلاقة بين الفلسفة والمنطق الإغريقيين والبلاغة العربية

مسألة التفاعل بين الفلسفة والمنطق الأرسطي والبيان العربي.

تعتبر مسألة تأثير الفكر الفلسفي الإغريقي عامة، والمنطق الأرسطي خاصة، في البلاغة العربية بشكل عام، والبيان العربي بشكل خاص، من أهم الإشكالات التي اهتم بها البلاغيون العرب، وذلك بعد ترجمة الكتب الفلسفية والمنطقية لأرسطو، خاصة كتاب: الخطابة والشعر، حيث ترجمت واستشهد بها في البيئة العربية الإسلامية، مما طرح مسألة كيفية تفاعل وتلقي البلاغيين العرب للفلسفة والمنطق الإغريقيين، وفي خضم هذه المسألة اختلفت مواقف الدارسين البلاغين والنقاد العرب تجاهها فمنهم من قبلها وانتفع بها أمثال: الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وغيرهما، ومنهم من قابلها بالرفض مثل ابن قتيبة وابن الأثير... الأمر الذي أحدث رؤى مختلفة في مسألة التأثير الأرسطي في البيان العربي وأثارت الكثير من النقاش والجدل والاختلاف في وجهات النظر بين الدارسين والبلاغيين والنقاد العرب، مما جعل الباحثين المعاصرين يتناولونها بالدراسة والتحليل من خلال جدلية التأثر والتأثير.

وكانت الدارسات الاستشراقية أول من أثار مسألة التأثير اليوناني، أما الدارسات العربية المعاصرة، فقد وقفت على هذه المسألة عندما أشار بعض الباحثين المصريين إلى أن البيان العربي نشأ بتأثير من البيان الأرسطي، وأن أرسطو شكل تيارا بارز المعالم في خريطة النقد العربي القديم، فظهر بحثان رائدان في مسألة التأثير الأرسطي، الأول دراسة أمين خولي: "البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها (1931)، والثاني دراسة طه حسين: "تمهيد في البيان من الجاحظ إلى عبد القاهر" الذي قدمه للمؤتمر الثاني عشر للمستشرقين عام (1931). ومع ظهور هذين البحثين أصبحت مسألة التأثير الأرسطي في البيان العربي من المسائل المهمة عند الكثير من الباحثين المعاصرين الذين تأثروا بالدراسات الاستشراقية، وبوجهتي نظر الخولي وطه حسين في المسألة8.

ومن الدراسات المعاصرة نجد دراسة مجيد عبد الحميد ناجي: "الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز" ودراسة عباس أرحيلة: "الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين" ودراسة زياد الزعبي: "المثاقفة وتحولات المصطلح، دراسات في المصطلح النقدي عند العرب"، وهي دراسة بحثت عمليات التأثر والتأثير بين الثقافتين العربية واليونانية، وذلك من خلال قراءة

مصطلحات نقدية وعربية تولد معظمها في سياق عمليات المثاقفة بين الإرث اليوناني والثقافة العربية. وفي هذا الكتاب توقف الكاتب عند موقفين: الموقف الذي يقر بمسألة التأثير اليوناني في البلاغة العربية كدراسة طه حسين ودراسة أمين خولي، والموقف الثاني الذي يرى أن البلاغة العربية أصيلة لا وجود لعنصر أجنبي فيها كما جاء في بعض الدارسات كدراسة فضل حسن عباس: "البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية"، والتي فنّد ما جاء في دراسة طه حسين وأمين خولي وغيرهم من الدارسين. والموقف الثالث يرى أن البلاغة والنقد تأثرا بأرسطو، ولكن التأثير كان محدودا لا يقرب الفلسفة إلا بكثير من التحفظ، ومن هذه الدراسات: دراسة أحمد مطلوب "مناهج بلاغية"، ودراسة علي العماري " قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية "، ودراسة عبد العزيز حمودة "المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية" وغيرها من الدارسات9.

إن علاقة البلاغة العربية بالفلسفة على وجه العموم وعلى البيان بشكل خاص، و ما فيها من أثر كبير لم يتصد لها الباحثون لدرس هذه النقطة درسا وافيا مع ما لها من الأهمية الكبرى في فهم ما في أيدينا من كتب البلاغة ونقدها؛ إذ البلاغة في جميع أطوارها عاشت في كنف رجال الفلسفة وتحت رعايتهم، ففي طور نشأتها و تكوينها نرى من رجالها سهل بن هرون المتوفى سنة 220هـ، كان حكيما يتعاطى الفلسفة، و أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة 255هـ، كان حكيما قرأ كتب الفلاسفة من اليونان و الفرس و الروم والهند، كما نجد قدامة بن جعفر الكاتب المتوفى أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع، كان أحد الفلاسفة وممن يشار إليهم في المنطق. ثم نخطو إلى طور من أطوار تطورها وظهور التأليف المفرد المستقل فيها فنرى أن عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني المتوفى سنة 471هـ كان متكلما على مذهب الأشعري، والزمخشري الذي يقال عنه وعن السكاكي: "لولا الأعرجان لذهبت بلاغة القرآن"10.

هذه نظرة موجزة عن صلة الفلسفة والمنطق بالبلاغة، وقد كان لها ولا شك أثرها في إشراب كتب البلاغة أبحاث الفلسفة إشرابا واضح الأثر؛ إذ نجد النزعة الجدلية والمنطقية تسيطر عليها حتى لا نكاد نخرجها تماما عن الغرض الأدبي، فترتيب الأبواب في تلك المؤلفات فلسفي، وتنظيم مسائلها، و بيان المعاني البلاغية من خواص التراكيب، و طرق الدلالة، و أوجه الحس فلسفي. فمن الفلسفة الطبيعية تجد الكلام في الألوان والطعوم، والروائح كما تجد الكلام عن الحواس الإنسانية، وتجد البحث في العقل والوهم والخيال والحس المشترك والوجدان11.

ومن الفلسفة العقلية نجد الكلام في الأسباب والمسببات وارتباطها وانتفاء المسبب بانتفاء السبب أو عدم انتفائه، ومن الفلسفة الأدبية نجد تعريف الخلق والكلام عن الصدق والكذب وحقيقتهما12.

ولو أمعنا النظر لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نواح متعددة، وذلك لعنايتهم بالفلسفة ترجمة كتبها، خاصة كتب أرسطو الذي تحدث في خطابته في أبحاث البيان عن استعمال الاستعارة وعن شروط الاستعارة الجيدة والاستعارات غير المطابقة وفائدة الاستعارة في الكلام وبين التشبيه وكيف ينضبط، وذكر علاقاته بالاستعارة كما ذكر الفروق بينهما وغيرها من المباحث البلاغية...

ونلحظ أثر الدرس المنطقي للخطابة في فنون البلاغة في قول عبد القاهر الجرجاني: "...المجاز أعم من الاستعارة وأن الصحيح من القضية في ذلك: أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة، وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن، أعني الخطابة ونقد الشعر..."13.

كتاب الجاحظ " البيان والتبيين" ومسألة التأثير الأرسطي:

يحمل كتاب: "البيان والتبيين" الكثير من الإشارات التي تدل على أن الجاحظ تأثر بالفلسفة اليونانية وبآراء أرسطو في الخطابة، وهذه الفكرة تؤيدها أغلب الدراسات المحدثة التي تذهب إلى القول بأن أثر الثقافة اليونانية عامة، والأرسطية خاصة، واضح في "البيان والتبيين" في بعض المسائل البلاغية14. ويؤكد أمين خولي أن كلام الجاحظ المبثوث في البيان والتبيين عن البلاغة، كلام فلسفي محض، لو قورن بمعاني أرسطو وبخاصة في كتابة الخطابة لرد جله إليها15. ومن جملة المصطلحات التي وردت عند الجاحظ والتي تجعل قضية تأثر الجاحظ بأرسطو واضحة نجد مصطلح "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" الذي أورده الجاحظ على لسان بشر بن المعتمر في صحيفته، وجاء في سياق الحديث عن اختيار المقال المناسب للمقام، وإنزال الناس في طبقات، والمصطلح في أصله يوناني تحدث عنه أرسطو حديثا موسعا في كتاب الخطابة، ومن يراجع النصيين يجد فيهما تشابها كبيرا16. ثم نقف على "قضية الألفاظ وصفاتها" فقد قال الجاحظ وهو يتحدث عن اللفظ: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، ولا ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا"17، وقول الجاحظ يتقاطع مع رأي أرسطو في أن العبارة يجب أن تكون لا ساقطة سوقية ولا غريبة، وفكرة الاعتدال تتكرر عنده كثيرا في الخطابة. يقول وهو يتحدث عن جمال الأسلوب: "إن فضيلة المقال – الأسلوب– أن يكون بالتغيير، لأن الكلمة رسم ما، فإن لم توضح شيئا فإنها لا تعمل عملها، إلا أن تكون لا حقيرة دنيئة، ولا مجاوزة للقدر الذي يستوجب لكي تكون جميلة"18.

كما أن مصطلح " المحاكاة" كان واحدا من المصطلحات التي أجمعت بعض الدراسات على أن الجاحظ استمده من أرسطو، وقد شكل مصطلح المحاكاة مصطلحا محوريا في كتاب الشعر، والدليل على ذلك عند الدارسين إشارة الجاحظ إلى كتاب الشعر وأرسطو في نص له ذكره في كتاب الحيوان، يقول" وأما الشعر، فحديث الميلاد...فأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس، ومهلهل بن ربيعة، وكتب أرسطو ومعلمه أفلاطون...وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور"19.

إن النقولات السابقة تشير إلى إجماع الدارسين المحدثين على تأثر الجاحظ، وترى التأثر منصبا بالمقام الأول على كتاب الخطابة، ثم على الفلسفة الأرسطية بشكل عام، ويبدو كذلك أن النزعة الاعتزالية عند الجاحظ ظاهرة...20.

حدود التأثير الأرسطي في البيان العربي:

مما لا شك فيه أن هناك بعض الدارسين لم يسلموا بالتأثير الأرسطي جملة وتفصيلا كالباحث عباس أرحيلة لم يسلم بشكل كامل بالتأثير الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، فهو يقول "وأستطيع القول إني لم أجد تأثيرا أرسطيا في النقد والبلاغة العربيين إلا ما كان له من أنفاس منطقية عندما يحلو لهم أن يجعلوا الجملة البلاغية قضية استدلالية. ورأى إشكال التأثير ترك ندوبا في وجدان المثقف العربي في العصر الحديث. لقد شككه في أصالة أمته ورسخ في وجدانه التبعية لأرسطو في القديم ولحفدته في الحديث. والغريب حقا أن يقع إهمال الرصيد النقدي والبلاغي الذي أنجزه العرب في تاريخهم الثقافي بضخامته وتنوعه وامتداداته، ولا يلتفت الغربيون إلا ما قاله أرسطو. ويقوم أبناء ينتمون إلى حضارة المسلمين ليخرجوا ذلك الرصيد من جبة أرسطو"21.

ويؤكد "عباس أرحيلة" بأن الجاحظ عني بالخطابة كما عني بها أرسطو في كتابه "البيان والتبيين" وكتاب "الحيوان" الذي ألفه أرسطو ألفه "الجاحظ" أيضا، كما يعرض بأن "طه حسين" جلس بين المستشرقين ليقول لهم أن أرسطو كان المعلم للعرب، ولما كان "الجاحظ " يأتي في مرحلة تأسيس البيان العربي، فلا بد أن يخرج التأسيس من جبة أرسطو22. إن قول بعض الدارسين بالتأثير الأرسطي على الجاحظ كقول أمين خولي: "وما في البيان والتبيين كلام فلسفي محض: لو قورن بمعان أرسطو وخاصة كتاب الخطابة لرد جله إليه ". هذا ليس دليلا على أن كتاب البيان والتبيين دار حول الخطابة، ففي زمن "الجاحظ" وإن كان كتاب "الخطابة"

مترجما فإنه لم يثبت ذلك في كتب التراجم ولم ينقل هذا الخبر أي من القدماء، فهو يصرح أن لليونانيين فلسفة ولهم صناعة في المنطق، ويمكن أن يكون "للجاحظ" معرفة بالمنطق الأرسطي، ولعل أفكاره وأفكار "أرسطو" تتلاءم مع بعضها البعض بسبب إطلاع كل منهما على بلاغة اليونان، وأن تلك الأفكار تكون متشابهة إلى حد كبير بسبب ظروف ذلك العصر. والخطابة كانت شائعة في الأمة العربية ومزدهرة في صدر الإسلام، فمن الطبيعي أن يعنى بها "الجاحظ" كما عني بها "أرسطو". إن الجاحظ لا ينكر معرفته بأرسطو، فهو يذكره بصاحب المنطق، كما اطلع على ثقافات أخرى، يقول: "وحبه للقراءة؛ أو الاطلاع المستمر على الثقافات المنتشرة في عصره جعلته، وهو يؤسس للبيان في التراث العربي، يطلع على آراء البيانيين الذين سبقوه، ويستعرض مفهوم البيان لدى الأمم الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية ولكن بطريقته وأسلوبه العربيين"23.

لهذا، لو كان الجاحظ قد اطلع على كتاب الخطابة لأرسطو لذكره أيضا، يقول عباس ارحيلة: "ومن الناحية العلمية لا نعرف متى ترجم كتاب الخطابة وليس لدينا دليل على أن الجاحظ عرف الكتاب، وما جاء به الباحثون المحدثون تأويل لقول ابن النديم – النقل القديم – لكتاب الخطابة، وهذا النقل القديم يوجد اليوم بين أيدينا. فهل يستطيع أحد اليوم أن يتجرأ ويدعي أن مثل هذا النقل يمكن أن يفهم ويؤثر؟ وأين بيان الجاحظ من انغلاق هذا النقل القديم"24.

ومن مظاهر تأثر الدرس البلاغي البياني بالمنطق اليوناني وتكوين اصطلاحاته ما أكده العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية المتوفى سنة 728هـ، حين رد القول بالحقيقة والمجاز في الكلام إلى ما بعد القرون الثلاثة الأولى، يقول: "تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة"25، وهو يقصد أن هذا التقسيم جاء بمؤثرات غير المؤثرات العربية، مما يؤكد أن المنطق شكل ضابطا مهما وموجها دقيقا في تحديد وتقسيم اصطلاحات البيان العربي.

ونجد حضور الضوابط المنطقية بشكل جلي في طريقة المتكلمين لدراسة البيان العربي، منها: ضابط العناية بالتعريف الصحيح، والتحديد اللفظي، والقاعدة المقررة، والإقلال من الشواهد الأدبية، وعدم العناية بالناحية الفنية في خصائص التراكيب وتقدير المعاني الأدبية، واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية. ونرى هذه الضوابط المنطقية جلية في نقد الشعر لقدامة بن جعفر حين يتكلم عن المديح فينظر إلى مذهب أفلاطون في أصول الفضائل الأربع وأمهاتها المتمثلة في الحكمة والعفة والشجاعة والعدل، ويرى أن القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب والقاصد إلى مدحهم بغيرها مخطئ26.

ويتولى بيان أقسام الفضائل الأربع واحدة واحدة، وما يدخل تحت كل واحدة من صفات، بل لا يكتفي بذلك فيذكر ما يحدث من تركيب بعضها من بعض، فقد تجلت الضوابط المنطقية عند بن جعفر في تحديد التعاريف والقواعد وتصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطقي في دراسة البيان العربي.

ويتجلى تحكيم القواعد الفلسفية في نقد المعاني الشعرية حين يتكلم قدامة على الهجاء بالغدر فيقول بأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمية والقحة التي هي القوة المميزة كما قال جالينوس* في كتابه في أخلاق النفس27. ويعتمد قدامة كذلك على الفلسفة حين يفاضل بين المغالاة وغيرها فيقول: "إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم"28. وحضور الضوابط المنطقية في الدراسة البيانية والنقدية العربية هي التي جعلت مدرسة البلاغة الكلامية الأوفر حظا عند المتقدمين والأرجح كفة عند المتأخرين، ثم الغالبة المنفردة في النهاية في مقابل نظيرتها الأدبية.

فمن الأولين الذين اتخذوا الضوابط و القواعد المنطقية قالبا لبلورة البيان العربي، نجد الجاحظ، إذ نرى ذلك ظاهرا في كلامه المبثوث في "البيان و التبيين" عن البلاغة، فهو كلام فلسفي محض لو قورن بمعاني أرسطو وخاصة في كتاب الخطابة، و كذلك قدامة

بن جعفر من أصحاب هذا الاتجاه، وأبو هلال العسكري أيضا لم يحد عن منهج من سبق ذكرهم في اعتماد الضوابط المنطقية في دراسة البيان العربي، بحيث نجد ذلك في أكثر من موضع من كتابه "الصناعتين" فهو مثلا يجاري قدامة في جعل الفضائل الأربع أصول المدح ومعياره بل يكاد ينقل عباراته بنصها29.

وبعد أبي هلال، يأتي عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" نجده جادل عن قضية الإعجاز جدلا منطقيا بارز النزعة في أسلوبه، من مثل قوله: "إن قلتم قلنا" و"كيف لا يكون الأمر كذلك" و "ما هو إلا كذا وكذا"، وأمثلة على ذلك كثيرة يعثر عليها في أغلب صفحات الكتاب.

لقد كان للقواعد المنطقية أثرها الظاهر في تحديد دائرة بحث البيان العربي، بحيث نجد السكاكي حين يؤلف كتاب "مفتاح العلوم" يردف علوم البلاغة بالضوابط المنطقية في الحد والاستدلال معللا ذلك بقوله: "لما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أربدا من التمسح بهما"30.

كما نرى مؤلفا آخر معاصرا له، هو القاضي زين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخي، أحد رجال القرن السابع الهجري، حين يؤلف كتابه: "الأقصى القريب في علم البيان" يعتبر القواعد المنطقية في القضايا وأنواعها مقدمات ضرورية للبحث البياني، فيقول: "ألفت هذا المختصر مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية ومعاني الأدوات العربية"31.

ويبرز أثر المنطق لدى السكاكي في القسم الثالث من "مفتاحه" إذ قسم الأدب إلى الصرف الذي لا يتم إلا بعلم الاشتقاق والنحو الذي لا تتم إلا بعلمي المعاني والبيان وكذا علمي الحد والاستدلال كما أضاف إلى الأدب علمي العروض والقوافي وهذه هي علوم الأدب"32. في نظر السكاكي. وقد حصر مباحث علم المعاني في الخبر والإنشاء والتقديم والتأخير والمجاز والكناية. ومحصل القول أن السكاكي كان من أشد البلاغيين ولعا بتطبيق أساليب الفلسفة والمنطق على كلام العرب إذ "عمد إلى أمهات الكتب لمن سبقه، فجمع زبدة ما كتبه الأئمة في هذه الفنون وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة، ورتبها أحسن ترتيب وبوبها خير تبويب"33.

وبعد السكاكي، لا بد من الإشارة إلى حازم القرطاجني الذي كان أول من عرض لنظريات أرسطو عرضا واضحا؛ ووقف عندها طويلا وطبق أكثرها على البلاغة العربية، فتحدث في كتابه: "منهاج البلغاء" هذا عن الأدب والشعر والخطابة.... وذلك بمجموعة من المصطلحات التي لم تكن مألوفة في البلاغة العربية كالقوى الصانعة والمحاكاة والتخييل. ومنهج حازم كله لم يكن مألوفا لدى البلغاء القدامى. إذ جاء منهجا زاخرا بما كتبه أرسطو والفلاسفة المسلمون وعلى رأسهم الفارابي وابن سينا، "وكان منهاج البلغاء آخر كتاب تأثر بأرسطو تأثرا مباشرا، ولم نجد بعده كتابا صار على هديه أو اتخذ بمنهجه أسلوبا"34.

من خلال ما تقدم، نرى المنطق يحيط ببحث البيان العربي وتحضر قواعده ضيفا غير محتشم في أول كتبه وآخرها، بل ما زالت به حتى عدته ميزانا له، فقد وضحها السكاكي في المفتاح بأنها علم معيار يحترز به بالوقوف عليه من الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه35. بل لا يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما ينتهي إلى التسوية بين عمل صاحب البيان وعمل صاحب الاستدلال والقياس، والتقسيم والسبر والاستقراء والتمثيل في مفتاحه، ثم يتبع ذلك كله ببيان هذه التسوية بين العلمين البلاغي والمنطقي فيقول: "وهذا أوان أن تثني عنان القلم إلى تحقيق ما عساك تنظر منذ افتتحنا الكلام في هذه التكلفة أن نحققه، أو على صبرك قد عيل له، وهو أن صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة كيف يسلك في شأن متوخاه مسلك صاحب الاستدلال..."36. ويبين ذلك فيرد محصول الاستدلال إلى أمرين: لزام شيء يستلزم شيئا فيتوصل بذلك إلى الإثبات أو يعاند شيئا فيتوصل بذلك إلى النفي، وإذا كان هذا خاص بالاستدلال فليس التشبيه والكناية والاستعارة إلا إلزام شيء يستلزم شيئا توصلا إلى إثباته، أو يعاند شيئا توصلا بذلك إلى النفي.

وهكذا تتوثق الصلة بين الضوابط المنطقية والبيان إلى حد اعتبار الجملة في اصطلاح النحاة نظير القضية في اصطلاح المناطقة، وفي ذلك يقول القاضي التنوخي: "ونظير القضية في اصطلاح أهل النحو الجملة ولا فرق بين الاصطلاحين، كما يقول بعد ذلك إلا أن أهل المنطق يتكلمون على المعاني مستتبعة للألفاظ، وأهل النحو يتكلمون على الألفاظ مستتبعة للمعاني..."37. ونجد أبحاث البيان لا تجوز دائرة الجملة أيضا، إلا أن تكون جملا متماسكة في أداء معنى واحد كتشبيه مركب أو مجاز كذلك، وهي جمل في منزلة الجملة الواحدة، ولها صفتها في أداء معنى بلاغي واحد ولا يعدو أن يكون إثبات شيء أو نفيه كما يقول السكاكي: "وعلى هذا نجد التشبيه والاستعارة والكناية التي هي كل بحث البيان ليست إلا جملة واحدة أو كالجملة الواحدة، وهي تبحث عن المعنى كاملا فتقابل التصديقات في بحث المنطق"38.

كما أن "هناك اتجاه يمزج بين خصائص الكلاميين من البلغاء وأولئك الأدباء حتى يكاد يشكل مدرسة واحدة، ونلحظ هذا في كتابي عبد القاهر الجرجاني المشهورين: " دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"؛ فعبد القادر الجرجاني بلاغي في كتاب "أسرار البلاغة"، أما في كتاب "دلائل الإعجاز" فكان عبد القاهر بلاغيا كلامي الدرس، فقد عني في هذا الكتاب بقضية إعجاز القرآن، واستخدم في مناقشته هذه القضية الجدل المنطقي، وأتى بالأدلة والبراهين، واتكأ على أسلوب الفلاسفة، ونجد في كتابه أمثلة كثيرة على ذلك، نحو قوله:

كيف لا يكون الأمر كذلك.

وما هو كذا وكذا.

إن قلتم قلنا"39.

مما تقدم، يمكن القول إن من أهم الخصائص المنطقية للبيان العربي: أن المتكلمين وضعوا المصطلحات وأمدوا بها البلاغة أثناء تكوينها بحيث استفادت من ذلك في وضع أسسها وجعلها نشاطا خاصا قائما بذاته، ومنها أيضا دراسة الفنون البلاغية على يد الباحثين في الإعجاز، وأغلبهم من المتكلمين الذين تمثلوا المنطق واعتمدوا عليه في أبحاثهم الاعتقادية، ومنها كذلك النزعة الجدلية الحجاجية التي سيطرت على البلاغة ولا سيما عند المتكلمين، ومنها الكلام على أوجه الحسن الفلسفي كما نجد في البيان40.

خاتمة:

نخلص مما تقدم في هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

تجلت إفادة البيان العربي من المنطق في ضبط مناهجه وجعله قائما على البحث الدقيق المحكم، وذلك لأن كثيرا من البلاغيين كانوا يتعاطون الفلسفة والكلام، منهم على سبيل المثال لا الحصر: الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري والسكاكي وغيرهم...

ولما كان للبيان العربي ما له من أهمية لدى العلماء العرب أقبلوا إلى الانكباب عليه و العناية به و تبيان أقسامه و أجزائه، بحيث سعى معظمهم إلى إرساء و تأسيس هذا العلم وفق ضوابط منطقية أفادت البيان و أمدته بوضع المصطلحات أثناء نشأته و نموه، مما عجل باتساع أبحاثه وجعله علما مستقلا له صناعته البيانية المنطقية الخاصة به؛ غير أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا الاتجاه الذي أسس البيان العربي وفق ضوابط منطقية لم يسلم من انتقادات الاتجاه الجمالي البلاغي، إذ يذهب بعض الباحثين إلى أن تلك الضوابط المنطقية ضيقت ميدانه وجعلت أبحاثه لا تتعدى دائرة الجملة التي رأوها نظيرة القضية.

كما توصلنا أيضا إلى وجود مواقف مختلفة حول تأثير الفكر الفلسفي والمنطقي الإغريقيين في دراسة البيان العربي، بحيث وجدنا بعض الدارسين اعتبروا الدرس البياني العربي وكأنه يوناني مكتوب بلغة عربية، كما زعم بعض الباحثين المستشرقين وسايرهم في ذلك بعض الباحثين العرب، بحيث أرجعوا مرحلة تأسيس البيان العربي إلى كل التراث اليوناني الأرسطي، وفي مقابل ذلك وجدنا فريقا آخر من الدارسين له مواقف مختلفة عن الفريق الأول، إذ بين أصالة البيان العربي في تأسيسه وإرجاع مصدره إلى تراث الحضارة العربية الإسلامية بدون أي مؤثرات للحضارة اليونانية بشكل عام والخطابة والجدل المنطقي الأرسطي بشكل خاص، وهناك فريق ثالث ذهب إلى القول بأن أصالة البيان العربي لا تعني عدم التأثر والاستفادة من التراث الإنساني عامة والتراث اليوناني الأرسطي خاصة، ولكن بتأثير محدود ساهم في بلورة وتأسيس البيان العربي بطابع عربي وضوابط منطقية أصيلة نابعة من تراث الحضارة العربية الإسلامية، لأن منطق التكامل بين الفكر الإنساني عامة والنظرة الموضوعية تفرض علينا القول حتى وإن كان هناك تأثير للفكر الإغريقي على البيان العربي، فهذا لا يعني القول بغياب الأصالة في صناعة البيان العربي، إذ تبقى له خصائصه التي تميز أصالته ضمن التراث العربي الإسلامي المساهم في التراث الفكري الإنساني بشكل عام و صناعة البيان بشكل خاص.

الهوامش

[1] رونيه ديكارت. مقال في المنهج. ترجمة محمود محمد الخضيري. ص: 109.

[2] الغزالي، المستصفى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 10/1.

[3] يوسف مسلم أبو العروس، مدخل إلى البلاغة: علم المعاني- علم البيان- علم البديع، نشر دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2006، ص143.

[4] الصافات، ص 65.

[5] علوم البلاغة للمراغي، ص 213.

[6] الجاحظ البيان والتبيين، ص 56.

[7] يوسف مسلم أبو العروس، مدخل إلى البلاغة، ص143.

[8] رامي جميل سالم، التأثير اليوناني في النقد والبلاغة العربيين من منظور الدراسات العربية المعاصر، الطبعة الأولى 2014، مكتبة لسان العرب، ص6.

[9] نفسه، ص 8-9.

[10] أمين خولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير، ص 112.

[11] نفسه، ص 113.

[12] نفسه، ص 114.

[13] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، طبعة الترقي سنة 1319، ص 326.

[14] انظر مجيد ناجي، الأثر الإغريقي، ص 68

[15] أمين خولي، البلاغة، ص 162.

[16] مجيد ناجي، الأثر الإغريقي، ص 15.

[17] الجاحظ، البيان والتبيين، 1: 144.

[18] أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، حققه وعلق عليه عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959، ص 186.

[19] الجاحظ، الحيوان، المجمع العربي الاسلامي، بيروت ط5، بيروت 1959، 1: 74.

[20] انظر اليسوعي، النزعة الكلامية، ص 22

[21] عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، ص 727.

[22] نفسه، ص 276-278.

[23]، عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، ص 283.

[24] عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، 286.

[25] تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، كتاب الإيمان، مطبعة السعادة، ص 34.

[26] قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، طبعة الجوائب، ص 20.

* جالينوس طبيب يوناني له علم بالرياضيات والمنطق والفلسفة.

[27] نقد الشعر، ص 93-94.

[28] نقد الشعر، 62.

[29] انظر الصناعتين لجعفر بن قدامة، ص 73.

[30] أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة، طبعة مكتبة الأسرة 2003، ص 124.

[31] *التنوخي أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمر، الأقصى القريب في علم البيان، ص124 .*

[32] يوسف بن أبي بكر بن محمد، أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص 196.

[33] ينظر تقديم نعيم زرزور لمفتاح السكاكي.

[34] مناهج بلاغية، ص 266.

[35] انظر المفتاح، السكاكي، طبعة مصر سنة 1318هـ، ص 70.

[36] المفتاح، ص 213.

[37] كتاب الأقصى القريب في علم البيان، طبعة الخانجي، ص 6.

[38] انظر مناهج تجديد في النحو والبلاغة، ص 126.

[39] يوسف مسلم أبو العروس، مدخل إلى البلاغة، ص 29.

[40] أمين خولي، مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص147.